مصطفى خياطي

الأوبئة و المجاعات في الجزائر

منشورات ANEP

مقدمة

مما كان أجدادنا يموتون؟ بصفة عامة كان متوسط العمر قصيرا نسبيا. كانوا قلما يموتون لأسباب طبيعية و غالبا بسبب الحوادث أو الحروب. و دراسة التاريخ الجزائري، باستثناء الحقبة الاستعمارية، تظهر أن الأوبئة و المجاعات و الزلازل و الفيضانات و الكوارث الطبيعية كانت هي الأسباب الرئيسة للوفيات طيلة قرون عديدة.

كلما ذكرنا كلمة الوباء يذهب تفكيرنا مباشرة إلى الطاعون، وهو مرض فردي مضن الفردي منذ العصور القديمة، وكان حاضرا في جميع مراحل تاريخنا رغم أن ذكره اليوم لا يعني لنا الشيء الكثير. لقد أودى هذا المرض بحياة الملايين من الناس في آسيا وأوروبا وإفريقيا، و دفعت أوروبا ثمنا باهظا جدا بسبب الطاعون الأسود الشهير الذي تفشى بين سنتي 1348 و 1349. و في الجزائر، أصبح ظهور هذا الوباء متواترا ابتداء من القرن الخامس عشر، و كانت نقطة انطلاقه في غالب الأحيان هي الموانئ تجلبه السفن كلما رست بسواحل القالة حيث تحتشد الفئران. و رغم أن الحجر الصحي كان مطبقا بإحكام فإنه كان يتعرض للخرق أحيانا بفعل التجاوزات التي ترتكبها السلطات. و خلافا لمزاعم الكثيرين من المؤلفين الأوروبيين فإن الظاهرة لم تكن محصورة في الجزائر و إنما تخص منطقة شمال إفريقيا كلها بما فيها مصر. فجميع دول المنطقة شهدت عدد سنوات الوباء التي شهدتها الجزائر إبان العهد العثماني و ربما أكثر منها. فعلى سبيل المثال، أشار

ييف Iliffe (1997، ص 76) إلى أن « مصر تعرضت، خلال الستين و المائة سنة التي تلت الطاعون الأسود، لهذا الوباء ثمانية وعشرين مرة تركت بها آثارا مدمرة فاقت آثار الطاعون الأسود نفسه. و استمر الحال على ما هو عليه الى غاية بداية القرن التاسع عشر، و كان عدد سكان مصر حينها يتراوح ما بين نصف وثلاثة أرباع ما كان عليه سنة 1346 ». و كان آخر وباء كبير دمر الجزائر قد امتد من 1817 الى 1822 و أودى بحياة أكثر من 000 20 شخص. و استمر بعد ذلك بشكل أخف لا سيما خلال القرن التاسع عشر و القرن العشرين. و بعد الحالات الست المسجلة في عام 1950 خمد الداء مدة فاقت 63 عاما بما جعل كثيرا من المراقبين يظنون أنه اختفى الى غير رجعة. و جاء تسجيل 11 حالة بين الجزائريين من بينها حالة وفاة عام 2003 ليذكرنا بأن عددا لا بأس به من البؤر الصغيرة ما يزال موجودا في شكل براغيث مصابة، و بأنه ينبغي إقامة نظام رصد و يقظة تفاديا لأي وباء مفاجئ في المستقبل.

أما الأوبئة الأخرى فكانت، قبل الاحتلال الفرنسي، في مرتبة دنيا و هي الملاريا، والجدري، والزهري، التيفوئيد ...

إن غياب الوثائق الموثوقة لا يسهل تفسير البيانات المتعلقة بحقبة ما قبل الإسلام. أما في العهد العربي والعثماني فإن « آثار موجات الجراد والجفاف والمجاعات زادت من حدة آثار الأوبئة، و ذلك بوتيرة لم تترك للناس أية فرصة لاسترجاع قوتها واستعادة حيويتها الديمغرافية.» (Noin، 1970، المجلد ا، ص 239). فعلى سبيل المثال، سجلت الجزائر سنوات عديدة من غزو الجراد في أعوام 1710، و 1716، و 1724، و 1725، و 1760، و 1778، و 1779، و 1780 ... سنوات عديدة من الجفاف في أعوام 1734، و 1737، و 1778، و 1779، و 1800، عام 1807، عام 1816، 1819 ... و سنوات عديدة من المجاعة في أعوام 1778، و 1779، و 1787، و 1789، و 1794 ...

لقد أثرت الكوارث الطبيعية بشكل كبير على الوضع الصحي والوبائي في البلاد، إذ سجلت منطقة الوسط عددا من الزلازل مست مدينة الجزائر و المدية عام 1632، و مدينة الجزائر عام 1665 و1676 ثم عام 1716، و شرشال عام 1735 و مدينة الجزائر و البليدة في عام 1760، و مدينة الجزائر في عام 1770، و وهران في عام 1790، و معسكر عام 1819 و البليدة في عام 1825.

و جاءت جميع هذه العوامل (الأمراض والمجاعات والكوارث الطبيعية) في مرحلة مضطربة من تاريخ الجزائر تميزت بالتنافس و انشغال البحرية على عدة جبهات والهجمات المتكررة على الجزائر من قبل القوى العظمى و الأوروبية منها على الخصوص، بينما كانت الجزائر تعاني حصارا مقنّعا. ونتيجة لهذا الوضع، سجل المنحنى الديموغرافي ركودا واضحا بالرغم من بعض الانتعاش بين الفينة و الاخرى. ولأن البلاد كانت منشغلة بفكرة الدفاع عن النفس بل و الحفاظ على الذات فقد كان من الصعب عليها اعتماد بل و حتى التحكم في العناصر الضرورية لتحقيق التقدم العلمي و الفكري على غرار الثورة الصناعية التي اتخذتها أوروبا شرطا أساسيا لبلوغ الحداثة والتقدم.

كان للاحتلال الفرنسي للجزائر خلال القرن التاسع عشر تأثير سيء على الوضع الصحي والوبائي للسكان الجزائريين، فبعد الأوبئة اللعينة التي سجلت في القرنين السابع عشر والثامن عشر حل العنف المميت الناجم من الكوليرا، و التيفوئيد، و الزهري، و السل، والمجاعة ... و ثبت اليوم أن الجيش الفرنسي والمعمرين كانوا سببا في العديد من هذه الإصابات و نشرها، و أن بعضها اشتدت ضراوته بالاستقدام المكثف للموجات البشرية. كذلك كان الحال بالنسبة لوباء الكوليرا الذي جلبه الجيش الفرنسي و نشره، و قد سجلت أبرز هذه الأوبئة في عام 1834،

و 1835، و 1837، و 1839، و 1846، و 1849، و 1855، و 1859، 1865، و 1866، و 1884 و 1893 . و لقد دخلت الآلاف من الريكتسيات، و هي عوامل التيفوئيد التاريخي، من أوروبا إلى الجزائر مع قمل الجسم البشري الذي جلبه الرعاع الذين أرسلوا إلى الاستيطان في الجزائر. و هكذا عاد داء الزهري إلى الظهور بالجزائر بفعل، هذه الموجات البشرية الجديدة التي تم جلبها بهدف رفع معنويات الجنود و لكن أيضا بفعل تكاثر مراكز الفساد التي أنشأتها السلطات العسكرية الفرنسية على مستوى الحاميات. لقد كان داء السل غير معروف تقريبا في الجزائر عشية الاحتلال إلا أنه انتشر عن طريق العمال الجزائريين الذين استغلوا في دعم الجهد الصناعي الفرنسي و وضعوا في ظروف غير صحية طغى عليها الوسخ و الاكتظاظ و سوء التغذية بما جعلهم عرضة لعصية كوخ قبل أن يعودوا الى البلاد ليموتوا بها و لكن بعد أن ينقلوا العصية القاتلة الى محيطهم. و يبقى داء الملاريا الذي كان موجودا حقيقة قبل الاحتلال، إستثناء غير أنه سجل انفجارا فظيعا بسبب التغيرات البيئية التي أحدثتها السلطات الاستعمارية، و قد تحالفت البعوضة المسؤولة عن نقل الطفيل، مع أهل البلاد لتأخير و لا مبالغة في القول إن هذه الأوبئة قتلت أكثر من مليون و نصف مليون شخص في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي. و من باب المقارنة، قدر نون Noin النتائج الوخيمة لوباء الطاعون و الكوليرا و الجدري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في المغرب بما لا يقل عن 1450000 مليون وفاة. (Noin، 1970) أما الأوبئة الأخرى التي خلفت أضرارا كبيرة و بالخصوص الجدري و الحصبة و الحمى القرمزية scarlatine ، و الاسهال والتيفوئيد ... فإنها لم تخضع للإحصاء!

كانت المجاعات التي شهدتها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي هي الأسوأ في تاريخ الجزائر من حيث حجمها وعدد ضحاياها. و ترجع مسؤولية الاحتلال في مجاعتي عام 1838 و عام 1847، و المجاعة

الكبرى التي وقعت بين 1866 و 1868، و مجاعتي1891–1892 و 1921–1922 إلى السياسة المنتهجة في زعزعة المجتمع الجزائري، و تجريده من أراضيه، و مصادرة المساحات الرعوية، و ضرب التقاليد الاجتماعية التي كانت عونا للسكان في مواجهة الكوارث (إنشاء المطامير الاحتياطية، وتنمية الثروة الحيوانية، و عادة المعاونة أي الإقراض بدون فوائد و غيرها). فكانت هذه المجاعات السبب في هلاك ما لا يقل عن مليون ونصف مليون شخص، و قد خلفت المجاعة الكبرى وحدها ما يفوق 800.000 ضحية.

كانت الكوارث الطبيعية، على امتداد القرن التاسع عشر، سببا هاما في الوفيات المسجلة، لكنها كانت تأتي بعد الأوبئة والمجاعات و هي الأسباب الرئيسة للأمراض و الوفيات.

يرتبط الاحتلال الفرنسي للجزائر و استمراره على مدى 132 عاما و بالأساس موازين القوى، و العطاء الحضاري الذي زعم به الفرنسيون لم يتحقق في الواقع إلا في القرن العشرين و كان ذلك لمصلحة المعمرين وحدهم. ففي الجانب الطبي لم تسجل المعارف أية انطلاقة حاسمة إلا مع أبحاث باستور. فقبل عام 1850، كانت نظرية «المزاج» هي الغالبة على باقي المفاهيم العلمية. و هي نظرية ترجع إلى العصور القديمة حاولت أن تفسر الأمراض من خلال تغيرات المزاج التي تطرأ على الشخص أو على بيئته. و قد أتاحت نظرية الجيل العفوي، التي هي امتداد منطقي لنظرية المزاج تطوير التقنيات الجراحية في ميادين القتال في غياب التعقيم مع تسجيل وفيات لا تحصى. فكانت أوروبا كلها، بالرغم من العدد الهائل من كليات الطب، مسرحا لهيمنة الحلاقين، و الصيادلة و العرافين بحيث حاولت المعارف التجريبية و الشعوذة في بعض الأحيان و حتى السحر والتنجيم تعويض غياب المعارف العلمية. بالمعنى الدقيق للعبارة، لم يكن هناك ما يدعو إلى

الحديث عن تفوق الطب الاوروبي على الطب الطبيعي الذي يمارسه أبناء البلد.

بالرغم من أن المجهر كان معروفا منذ مطلع القرن السابع عشر و كان يستعمل في مشاهدة الميكروبات (micro bio، مايكرو بيو = حيوان صغير)، فإن مسؤولية هذه الجراثيم و آلية انتقال الإصابة بها لم تكن معروفة. لهذا، فإن الطريقة الوحيدة لتجنب تفشي الاوبئة أو تخفيف تأثيرها كانت تنحصر في الاجراءات الوقائية (العزل، والحجر الصحي ...). و على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر و العشريات الأولى من القرن العشرين بدأت تظهر سلسلة من الاكتشافات أحدثت ثورة في المنهج التجريبي الذي كان سائدا قبل ذلك في مجال الطب: المنهج التجريبي الذي وضعه كلود برنار عام 1850، إدخال استعمال الأثير، و البنج (الكلوروفورم) كعناصر تخدير في العمليات الجراحية، وتشخيص الكائنات الدقيقة المسؤولة عن الالتهابات، وتحديد دور النواقل في نشر العدوى، و تطوير الأمصال و اللقاحات و المضادات الحيوية ... و بدأ الأوروبيون يستفيدون من فوائد الاكتشافات الطبية والتغطية الصحية. لكن الجزائريين لم يصبحوا موضع اهتمام الا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى بسبب الاحتياجات الهائلة لليد العاملة من جهة، و المشاركة القوية للشعوب المستعمَرة في انتصار القوات الاستعمارية.

هل يمكن القول إن عهد الأوبئة قد ولى الى غير رجعة بفضل التقدم العلمي؟ بالتأكيد الجواب هو: لا! فالتهديدات التي واجهتها البشرية في العشريات الأخيرة على غرار الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية و الإصابة بالإيدز، و متلازمة الالتهاب التنفسي الحاد (سارس SARS) و جنون البقر و انفلونزا الطيور 1N1H، تثبت هشاشة نظام الرعاية العالمي. و الجزائر، بحكم موقعها الجغرافي و نموها الاقتصادي،

معرضة للمخاطر على صعيدين: الاول من جانب الفقر و التيفوئيد و الاسهال و الحمى المالطية و الليشمانيوز، والتسمم الغذائي، و الطاعون، و الثاني هو التصدي لمخاطر الاوبئة العالمية الكبرى. و منه كان لا بد لها من وضع نظام صحي قادر على مواجهة هذه المخاطر.

تشكل الزلازل تهديدا متواصلا للشريط الساحلي الجزائري بأكمله، و زيادة على ذلك تبين الدراسة التاريخية أن الظروف المناخية القاسية ازدادت شدة و أصبحت مواجهتها أكثر صعوبة. و قد أشار تقرير مجموعة الخبراء الحكوميين حول تغير المناخ GIEC (2007) إلى أن منطقة المغرب العربي على وجه الخصوص ستسجل مستقبلا زيادة في شدة هذه الظروف. و فيضانات 10 نوفمبر 2001 التي دمرت حي باب الواد الشعبي و خلفت 780 قتيل و 350 مفقود ومئات المباني المدمرة أو المتضررة، وزلزال بومرداس (21 مايو 2003) الذي بلغت شدته 6,8 درجات على سلم ريختر و الذي خلف 2.278 قتيل، و 11.500 جريح و تضررت منه 155.000 أسرة زيادة على الخسائر التي فاقت قيمتها ثلاثة مليارات دولار، إنما تعطينا فكرة عن الظواهر المناخية الصعبة التي يتعين على البلاد أن تتكفل بها. (El Watan.Benelkadi K.)

أمام كل هذه الأوبئة، و المخاطر الغذائية، و الزلزالية و المناخية، يتعين على الجزائر أن تضع استراتيجية وطنية للوقاية من خلال مراصد اليقظة. و قد أثبتت التجارب الأخيرة في إدارة حالات الطوارئ أن ذلك مكلف جدا من ناحية النفقات و غير كاف من ناحية التعويضات المقدمة للضحايا. لهذا يقتضي الامر فتح قنوات التشاور الدائم بين الأوساط العلمية و مراكز صنع القرار القادرة على القضاء على هذه المخاطر أو تخفيفها.

الفهرس

تقديم البروفيسور بشير رويس..... 05
المقدمة 09
1-الطاعون: 19
السبب جرثومة فتاكة 20
الخصائص السريرية لوباء الطاعون في الجزائر..... 21
الدراسة الزمنية 22
الطاعون في العصور القديمة والعهد الروماني 22
الطاعون من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر 26
الطاعون في القرن السادس عشر..... 31
الطاعون في القرن الثامن عشر..... 46
الطاعون في القرن التاسع عشر 57
تفشي الطاعون في عهد الاحتلال كوباء متوطن لأكثر من قرن..... 61
الطاعون في الجزائر: أسئلة من وحي الدراسة..... 63
الرغبة في معرفة المزيد عن الآفة..... 63
الإجراءات العلاجية المتخذة في علاج الطاعون..... 64
هل تم تطبيق الإجراءات الوقائية، و بالخصوص الحجر الصحي..... 65
هل كانت الجزائر أكثر عرضة للوباء من باقي بلدان المتوسط ؟..... 68
المراجع..... 72
2-الجدري..... 75
الدراسة الزمنية..... 75
التطعيم ضد الجدري..... 78
رفض التلقيح ضد الجدري..... 82
الخلاصة..... 88

3 – الملاريا **89**
إبن حمادوش الجزائري 93
نظرية «الجو الخانق» لشرح الملاريا 96
اكتشاف عامل الملاريا في قسنطينة 96
في الجزائر، مصلحة الاستعمار هي الأهم 99
ضعف استفادة الجزائريين من التقدم العلمي 103
4 – التيفوس **106**
التذكير بتصنيف الأمراض 107
الدراسة الزمنية 108
كيف توطن التيفوس في الجزائر 119
مقارنات و تساؤلات 121
جزائر ما بعد الاستقلال: استمرار التيفوس المتوطن 123
المراجع 125
5 – الزهري **127**
العلامات السريرية 127
الدراسة الزمنية 129
الدعارة في العهد العثماني 137
الدعارة إبان الحقبة الاستعمارية 139
الإطار التنظيمي الاستعماري المثير 140
حجة صحية واهية: الحفاظ على معنويات الجنود 141
صناعة الجنس: إنتاج عسكري فرنسي 143
ارتفاع معدلات الاعتلال في صفوف جيش الاحتلال 147
البؤس سبب الدعارة 149
مرض الزهري إبان الحقبة الاستعمارية 151
الخلاصة 153

6 – الكوليرا **155**
الدراسة الزمنية 156
ملاحظات حول تجدد وباء الكوليرا خلال القرن التاسع عشر 170
من مشاهير ضحايا الكوليرا 171
الطب التقليدي في مواجهة الكوليرا 171
الخلاصة 172
7 – السل **175**
مرض معد و مجتمعي 176
الدراسة الزمنية 177
الرضع والأطفال أول الضحايا 185
خطورة العدوى 186
العوامل التي تسهل انتشار السل 186
نقص وسائل المحاربة 187
غداة الاستقلال 191
المراجع 194
تاريخ المجاعات 199
في العصور القديمة والعهد الروماني 200
من القرن السابع الميلادي إلى بداية القرن الخامس عشر 205
المجاعات المسجلة خلال الفترة العثمانية 213
مجاعة قسنطينة (1804–1805 / 1219 ه) 216
الإحتلال الفرنسي للجزائر: لا تحسن في الأوضاع 217
مجاعة عام 1838 218
مجاعة عام 1847 219
المجاعة الكبرى أو «عام الشر» (1283–1285 ه / 1866–1868) 219
تحليل مأساة 1866–1868 223

النتيجة المباشرة للأزمة :
انتفاضة المقراني، و القمع و النفي و النزوح.....226
نتيجة أزمة 1866–1868: تنصير الضحايا.....226
الخلاصة.....123

الأوبئة و المجاعات في الجزائر

بالرغم من وفرة الكتابات التي تناولت تاريخ الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية، فإن كتاب السيد خياطي، المؤلف المعروف بإنتاجه الوفير في مجال الطب الذي يمارسه كمهنة و يدرّسه كمادة يجد له مكانا لدى القراء لأسباب عدة.

أولا، لأنه يقدم لنا، و نحن على أعتاب قرن جديد، حوصلة لتاريخ يزخر بالأحداث و قد اختار منه ما وقع على أرض الجزائر الغنية التي أثارت ثرواتها الزراعية أطماع القوى الأوروبية الكبرى منذ القرن الثامن عشر. ثم إنه جهد ضخم ذلك الذي بذل في جمع الوثائق المرجعية المفيدة للباحث و الطالب على حد سواء. و زيادة على ذلك فهو يتضمن نظرة ناقدة لمعدلات الأمراض و الوفيات التي اجتهد في تصحيحها بناء على معايير موضوعية، فضلا عن تحليل العوامل التي تزيد من وطأة المجاعات والكوارث الطبيعية على ساكنة أصبحت فريسة سائغة للجوع بعد أن حرمها المحتل من كل ما لديها.

البروفسور بشير ولد رويس

9 789947 216255